مجالات الفكر البنيوى

دكتور . على حنفى محمود
قسم الفلسفة - كلية الآداب
جامعة طنطا

بسم الله الرحمن الرحيم

مجالات الفكر البنيوى

تقـــــديم :

تشكل البنيوية Structuralism حلقة فى السلسلة الطويله من تلك الجهود والمحاولات التى تستهدف جعل دراسة الإنسان علما دقيقا ولقد بلغت البنيوية باعتبارها اتجاها فكريا وفلسفيا ، أوج عظمتها فى أواخر الستينات من هذا القرن .

والواقع أن المد البنائى - فى فترة الذروة هذه - قد وصل الى مجالات وميادين كثيرة . ففى مجال اللغويات كان " جاكوبسون وتشومسكى يقودان حركة نشطه أتخذ منها الكثيرون نموذجا ومثالا يحتذى فى مجالات أخرى .وفى ميدان التحليل النفسى كان " لاكان Lacan " يلفت انتباه معاصريه بنظرته الجديدة الى هذا العلم الذى كان يبدو ، قبل نشر بحوثـــــه ، فى حالة ركـــود نسبى .وفى النقـد الأدبـــــى كان " بارت R. Barthes " يفتح عهدا جديدا فى تفسير النصوص على أساس بنائى ، وفى الميدان الفلسفى كان مفكرا ميالا الى المحافظة مثل : فوكـو Foucault يبهر جمـاهير المثقفين برؤيتـه الجديدة فـــى كتابـه المشهـور " الكلمات والأشياء " .

على أن هذا الانتشار الذى جعل من البنيوية مذهبا فلسفيا شاملا . ما يقرب من عشر سنوات ، لا ينبغى أن يخفى عنا حقيقة هامة ، وهى أن البنيوية لم تصبح مذهبا فلسفيا الا أن المتخصصين قد تنبهوا فى ذلك الوقت بالذات إلى الامكانات الحقيقيه التى تكمن فى فكرة " البناء " اما الفكرة ذاتها ، و اما مبدأ التفكير من خلال " بناءات فكان معروفا قبل ذلك بوقت طويل (١) .

ولكن ربما كان ما يثير الدهشة ، أن الكثير من " البنيويين" قد أصبحوا هم أنفسهم غير راضين أو مستعدين لقبول هذة التسمية ، و يبدو أن كلمة "البنيوية" نفسها قد أصبحت مثارا للكثير من الشبهات لدرجة أن البعض قد أصبح يخشى

إستخدامها ، معللاذلك بـــأن " البنيوية " هى مجرد لفظة هلامية اخترعها بعض رجال الصحافة ، وها هو " فوكوه " يعلن- فى هذا الصدد- أن ما يسمونة باسم " البنيويات " إنما يمثل مجموعة متنافرة من الفكرين المتباينين الذين أريد لاسمه أن يزج بينهم - بدون وجه حق ، وعلى الرغم منه - ومن ثم فإننا نراه يقرر أن " البنيوية " مقوله لا توجد إلا بالقياس إلى الاخرين ، أعنى أن أولئك الذين ليسوا هم أنفسهم كذلك ! ونجد نفس الشيء عند " لاكان " - أيضا - حيث نراه يعجب لادراج اسمـــه تحت مقولـــــه " البنيويين " وهو المحلل النفسى الذى نادى بضرورة العودة الى فرويد " ، آخذا على عاتقه الالتزام بحدود بحثه العلمى بكل أمانه وصرامة (٢) .

ولاشك أننا لو دققنا النظر فى الاتجاهات الفكرية المتباينه التى نجدها عند كل من " كلود ليفى شتراوس " وميشيل فوكوه ، وجاك لاكان ، ولويس التوسير (وهم أقطاب البنيوية الأربعة) . لوجدنا أنه ليس ثمة " مذهب بنيوى " واحد يمكن أن يجمع بينهم : لأن البنيوية التى ألفت بينهم لا تكون مدرسة فلسفيه (بمعنى الكلمة) ، على العكس مما هو ماثل بالنسبه الى " الوجودية " أو " الماركسيه" ولعل هذا ما عبر عنه جان لاكروا حين كتب يقول : " ليس ثمة مذهب بنيوى ....، بل أن هناك - وهذا أمر له مغذى أعمق ودلالة أكبر - التقاء ذهنيا بصفة عامة ، ومنهجيا بصفه خاصه ، بين مفكرين متباينين يعيشون معا عصرا واحد بعينه ، ألا وهو عصر انتهاء الايدولوجيات ، والحق أن كل ما يجمع بين ليفى شتراوس وفوكوه ، ولاكـان ، والتـوسير ، انما هو ذلك المشـروع العلمى الـذى أرادوا تطبيقـه على معرفتنا بالانسان ... " (٣) .

وعلى هذا الأساس نستطيع أن نقول أن البنيوية هى قبل كل شيء " منهج " فى التفكير ، وبهذا المعنى كانت موجودة منذ عهد بعيد ، ولكنها لم تصبح " مذهبا " فلسفيا الا بعد أن تنبه بعض المفكرين ، بطريقة واعيه ، الى أهمية هذا المنهج وحددوا معالمه بوضوح بعد أن كان يطبق بطريقة ضمنية دون وعى بكافة أبعاده (٤) .

(١) مفهوم البنيوية

قد يتبادر للذهن أن كلمة " البنية " - التى اشتق منها لفظ " البنيوية " كلمة عادية مألوفه لنا تتقرب فى فهمنا فى معنى " الشكل "أو " الصورة " . ولعل هذا هو ما جعل بعض الباحثين يذهبون الى القول : " كل شيء - الا أن يكون معدوم الشكل تماما - له " بنيه " ومن ثم لايضيف هذا اللفظ شيئا جديدا الى ما فى ذهننا (٥).

أما فى لغتنا العربيه - فان كلمة " بنية " لاتمثل كلمة عادية تجرى بكثرة على أقلام الباحثين والكتاب ، الا أن المعنى الاشتقاقى لهذه الكلمة ، ينطوى على دلالة معمارية ترتديها الى الفعل الثلاثى ، بنى ، يبنى ، وبناية ، وبنية ، وقد تكون " بنية " الشيء - فى العربيه - وهى " تكوينه " ولكن الكلمة قد تعنى أيضـــــا" الكيفية التى شيد على أساسها هذا البناء أو ذاك " . وبالتالى يمكننا أن نتحدث عن " بنية المجتمع " ، أو "بنية الشخصية "، أو " بنية اللغه ... الخ . وحين كان أهل اللسان العربى يفرقون فى اللغه بين " المعنى " و" المبنى " ، فانهم كانوا يعنون بكلمة " مبنى" مايعنيه اليوم بعض علماء اللغه بكلمة " بنية ".

وفى اللغات الأجنبيه ، نجد أن كلمة " بنية Srurcture" مشقه من الفعل اللاتينى Struereبمعنى " يبنى " أو " يشيد" . وحين تكون للشيء " بنية " (فى اللغات الأوربية) فان معنى هذا - أولا وقبل كل شيء - أنه ليس بشيء " غير منتظم ، له صورته الخاصه ، ووحدته الذاتيه " . وهنا يتضح نوع من التشابه والتقارب الأولى بين معنى " بنية " ،معنى " الصورة Form " ومادامت كلمة " بنية " - فى أصلها اللغوى - تحمل معنى " المجـــموع " أو " الكل" ، المؤلف من ظواهر متماسكة ، يتوقف كل منها على ما عداه ، ويتحدد من خلال علاقته بما عداه (٦).

هذا من الناحية اللغويه ، أما مفهوم " البنيه " من المنظور العلمى والفلسفى ، فاننا نواجه بعدة معانى وتعريفات لهذه الكلمه : وها هو " لالاند " يشير فى معجمه الى أن " البنية " هى : " نسق وكل مؤلف من ظواهر متضافرة بحيث تكون كل ظاهرة فيها تابعه للظواهر الأخرى ، ولا يمكن أن تكون ما هى عليه الا فى علاقتها بتلك

الظواهر . وفى ضوء هذا المعنى تكون العلاقات هى التى تعطى هذا النسق وحدته وتوضح وظيفته ، ولا يمكن فهم أية ظاهرة فيها بمعزل عن الظواهر الأخرى داخل النسق ، اذ لا قيمة للعناصر الجزئيه المكونه للبنيه الا بالنظر الى العلاقات القائمة بينها والتى تربط هذه العناصر بعضها الى البعض الأخر ، وتؤلف بينها فى نسق محدد المعالم أو منظومة محددة (٧).

فى حين يرى البعض أن كلمة البنائية "تعنى الآن " فى الاستعمال الشائع ، فلسفه جديدة فى الحياة مثل كلمة " وجودية " وكلمة " ماركسية " .

ولو أننا رجعنا الى دائرة معارف " لاروس "Larousse ، نجدها تقرر أن البنائية ليست مذهبا كما أنها ليست منهجا وانما هى اتجاه عام للبحث فى العديد من العلوم الانسانيه يهدف الى تفسير الظاهرة الانسانية بردها الى كل منتظـــــــم Ensemble Organise ويتفق " كلير امبار Andre Clerambard مع ما أوردته دائرة معارف لاروس ، حيث يرى أن البنائيه ليست نظرية فلسفيه بمعنى الكلمه وانمـــــا هى تيار فكرى معاصر موجود لدى فلاسفة مثل فوكوه Foucault صاحب " الكلمات والأشياء " ، ولاكان Lacan صاحب " كتابات "Ecrits

وفى مجال توضيح معنى " البنية " أو " البناء" قد كلير امبار المثال التالى :

" أن تحليل بناء السيارة لايعنى تكسيرها أو تفتيتها الى قطع صغيرة ، واما يعنى تمييز وتحديد عناصر المحرك بعضها عن البعض . وذلك لأن السيارة معدة ومجهزة كوسيلة للانتقال أى الاتصال . وهذه الوظيفه هى التى تسيطر على ترابط جميع العناصر المكونه للكل أى البناء " (٨).

واذا انتقلنا الآن الى تعريف آخر للبنية ، ألا وهو التعريف الذى نادى به ليفى شتراوس ، وجدناه يقرر بكل بساطه أن " البنية تحمل - أولا وقبل كل شيء - طابع النسق أو النظام . فالبنية تتألف من عناصر يكون من شأن أى تحول يعرض للواحد منها ، أن يحدث تحولا فى باقى العناصر الأخرى . ويجتهد ليفى شتراوس فى شرح وتفسير المقصود بهذا التعريف ، فيقول أن عالم الاجتماع الذى يواجه كثرة هائلة من الظواهر

الاجتماعية (من طقوس ، وعقائد ، وأساطير .. الخ) ، وسرعان ما يتحقق من أن كل هذه الظواهر تعبر بلغة خاصه عن شيء مشترك بينها جميعا ، وليس هذا الشيء المشترك - على وجه التحديد - سوى " البنية " ، إعنى تلك " العلاقات الثابته " القائمه بين حدود متنوعة تنوعا لاحصر له ، وأما هذه الحدود فانها ليست سوى الظواهر التجريبيه ذاتها ، إن لم نقل " المظاهر " التى هى عبارة عن مجموعة من " المعطيات الغفل " .

ويستطرد ليفى شتراوس فى شرح عملية " التبسيط" العلمى التى لاغنى عنها لفهم الظواهر فهما بنيويا ، فيقول لنا أن العبره هنا هى بالوصول الى العلاقات القائمة بين الأشياء ، على اعتبار أن هذه العلاقات أبسط من الأشياء نفسها . والواقع أن " حقيقة " الظواهر لاتتمثل فى " ظاهرها " على نحو ما يتراءى عيانا للملاحظ ، بل هى تكمن على مستوى أعمق من ذلك بكثير ، ألا وهو مستوى دلالتها على حين أن الأشياء قد تظل غامضة معقدة عسيرة الوصف نجد أن " العلاقات بين الزشياء كثيرا ما تكون أبسط من الأشياء نفسها " . وبالتالى فان ما تتميز به " الواقعة " العلمية هى أنها تبدو لنا على صورة " علاقات بين ظواهر " ، ومن هنا فانها توجد فى حالة استقلال عن ظواهر الأشياء ، وأن لم تقل انها تكمن خلف " أو تحت " الظواهر نفسها (٩).

والمتأمل فى تعريف " البنية " عند ليفى شتراوس ، يلاحظ أنها فى نظره - نظاما آليا " له " ميكانزماته " الخاصه التى تعمل بطريقة رمزية لاشعورية ، بحيث قد يصح لنا أن نقول أن كل " بنية " لابد أن تـــكون " بنية تحتية " أو " سفلية " لأنها فى جوهرها " آلية لاشعورية " تكمن خلف العلاقات المدركة ، وتعمل عملها من وراء الوعى المباشر للأفراد (١٠) .

ولكن هذه الطريقه اللاشهوريه ، ليست هى التى يتحدث عنها " فرويد" فهو ليس اللاشهور المرتبط بالرغبات والغرائز ، بل لاشعور من منظور القوالب والمقولات ، ذلك لأننا ازاء منظومة من مستوى المقولات دون احالة الى ذات مفكرة ، فهو اذن لاشعورى بنيوى غير شخصى وغير زمانى وانما يعبر عن نفسه من خلال الانسان .

فالبنية هى النظام المستتر Hidden Order فى السلوك البشرى (١١).

وذهب " جان بياجيه " Jean Piaget الى أننا حاولنا تحديد معنى البنيوية بالمقابل مع مواقف أخرى فلن نجد الا مفارقات وتناقضات مرتبطه بجميع تقلبات العلوم والأفكار . أما اذا ركزنا اهتمامنا على المميزات الايجابيه لمصطلح البنية ، نجد على الأقل مظهرين مشتركين بجميع البناءات : من جهة مثالا أو آمالا من الوضوح الضمنى ، ترتكز على المسلمه القائله أن البنية تكتفى بذاتها ولاتتطلب لادراكها اللجوء الى أى من العناصر الغريبة عن طبيعتها ، ومن جهة أخرى المجازات تقدمها رغم تنوعها ، وذلك الى حد ما يمكن معه فعليا ادراك بعض البنيات ، وحيث يوضح استعمالها بعضا من ميزاتها العامه التى تبدو ضرورية (١٢). ومعنى هذا أن للبنية قانونها الخاص الذى يجعل منها نسقا مترابطا ، لاتفتقر الى عوامل خارجية مستقله عنها ، فهى تتمتع بالاستقلال الذاتى .

ويبدو أن رأى راد كليف براون بصدد تعريف البنية يماثل موقف "جان بياجية" حيث أشار الى أن " كل بنية تتميز بتفردها بذاتها ولايمكن ردها الى غيرها " فالبنية عنده تعبرعن النظام الفعلى للوقائع ، هى شىء معطى فى ملاحقة كل مجتمع محدد(١٣)

الواقع أن مصطلح البنية هو مجموعة من التناغمات ؛ أى مجموعة من العلاقات الداخلية الثابته التى تتميز بها مجموعة ما عن غيرها ، بحيث تكون هناك أسبقية منطقية للكل على الأجزاء . أى أن أى عنصر من البنية لايتحدد معناه الا فى ضوء الوضع الذى يشغله داخل المجموعة ، وأن الكل يظل ثابتا على الرغم مما قد يعترى عناصره التغير (١٤).

وهذا ما تؤكده البنيوية حيث تذهب الى أن تحديد معنى اللفظ Term انما يتم من ثنايا علاقته بغيره من الألفاظ الأخرى داخل السياق ، ومن ثم يمكن أن يستبدل اللفظ بآخر يحل محله بشر ط أن تكون هناك علاقه ضرورية بين الأثنين (١٥).

ويهمنا أن نشير الى تعريف آخر ومختصر "للبنية" قال به أحد خصوم البنيوية من رجالات التاريخ ، وهو ألبيرسوريل ، الذى يقول " أن مفهوم البنية لهو مفهوم العلاقات

الباطنه ، الثابته ، المتعلقه وفقا لمبدأ الأولوية المطلقه للكل على الأجزاء ، بحيث لايكون من الممكن فهم أى عنصر من عناصر البنية خارجا عن الوضع الذى يشغله داخل تلك البنية ، أعنى داخل المنظومة الكلية الشامله " . ثم يضيف سوريل تعليقه على هذا التعريف بقوله : أنه يفترض أن فى وسع المنظومه الكلية أن تظل باقية ، ثابته ، لايعتريها التغير ، على الرغم من " التحولات" أو " التغييرات المترتبه عن تغير أو تحول العناصر ، ومن هنا فان مفهوم " ثبات " البنية يحتل مركز الصدارة فى أى تحليل بنيوى . بل يتصدر مفهوم " الثبات " على مفهوم " الحركة " ، ويقدم " المقولات المورفولوجية " على " المقولات التطورية " . وبالتالى فان " البنيوية " لابد بالضرورة من أن تسهم فى ابراز التعارض بين " البنية " و " التاريخ " ، خاصة وأن " التاريخ " لايمكن أن يتصف بالثبات ، فضلا عن أنه لاينتهى مطلقا ، والخلاصة - فى رأى سويول - أن التحليل البنيوى " جهد علمى يستهدف تشريح البنيات ، فى حين أن " التحليل التاريخى " لايقتصر على " التشريح " وحسب ، بل يمتد الى نوع من " الدراسة الفسيولوجية " للبنيات ، وبينما يؤكد بعض " البنيويين " أن من شأن كل " بنية " أن تظل كما هى ، اللهم الا اذا اصطدمت - من الخارج - ببنيات - أخرى ، نجد أن المحرك الحقيقى لتغير " البنيات " - فى رأى المؤرخين - هو " التناقض " الداخلى الكامن فى صميم " البنيات "

وعلى أية حال فاننا لو تجاوزنا دائرة " الظواهر اللغوية ، من أجل فهم مبسط لمعنى " البنية " على وجه العموم ، نجد أن " البنية " فى أبسط صورها ، هى " نظام من العلاقات الثابته الكامنه خلف بعض التغيرات " ولعل هذا ما حدا ببعض الباحثين الى القول بأن كل علم من العلوم لابد من أن يكون " بنيويا " (١٦).

(٢) مصادر الفكر البنيوى

أ) علم اللغه

يعد علم اللغه من أهم مصادر البنيوية ، وهو مصدر كان معترفا به صراحة فى كتابات البنيويين ، على حين أن تأثير فلسفة كانط فى تفكيرهم كان ضمنيا فى أغلب الأحيان . ولهذا الارتباط الوثيق بين البنائيه وبين اللغويات مبررات قوية : اذ لاتوجد "بنية" بالمعنى الصحيح الا لما هو لغوى ، وجميع المجالات المعروفه لايصبح لنا بناء الا حين تتخذ طابعا لغويا .

ومن ثم أولت البنيوية اهتمامها بدراسة اللغه - وتبدى هذا الاهتمام فى التركيز على دراسة علم الفكر والبنيات العقلية للعالم الواقعى . طالما أن اللغويين . منذ أيام العالم السويسرى المشهور " دى سوسير " فى مطلع القرن العشرين ، درسوا عناصر اللغه ، والسمات المميزه لعلاقاتها بوصفها انساقا لاعلاقة لها بالعالم الذى تدل عليه أو تعبر عنه ، فكانوا بذلك يطرحون مشكلات بنائيه خالصه ويضربرن مثلا يحتذى للعلوم الانسانيه الأخرى التى لم تكن قد وصلت بعد الى مرحلة الاستقلال عن مضموناتها واكتشاف تركيباتها الخالصه أى أن نجاح اللغويات - وهى قبل كل شىء علم انسانى - فى بلوغ العلم المنضبط كان عاملا مشجعا للباحثين فى الميادين الأخرى للدراسات الانسانيه والاجتماعيه على الاقتداء بهذا العلم الناجح فى منهجه ، وفى الهدف الذى يرنوا الى تحقيقه . ولقد عبر " ليفى شتراوس " عن هذه العلاقه بين اللغويات وسائر العلوم الانسانية تعبيرا صريحا واضحا بقوله : " اننا نجد أنفسنا ازاء علماء اللغه ، فى وضع حرج . فطول سنوات عديدة كنا نشتغل معهم جنبا الى جنب ، وفجأة يبدو لنا أن اللغويين لم يعودوا معنا ، وانما انتقلوا الي الجانب الأخر من ذلك الحاجز الذى يفصل العلوم الطبيعية الدقيقة عن العلوم الانسانيه والاجتماعية (١٧).

ومما لاشك فيه أن ثمة صلة وثيقه بين العلاقات والفكر على أساس أن اللغه هى الوعاء والمظهر الخارجى الذى يتم تقديم الفكر من خلاله . فما يعتمل فى ذهن الانسان من تآملات وأفكار ومشاعر وغيرها يمكن الافصاح والتعبير عنه بوسائل عدة : كالألوان

والخطوط فى الرسم أو النغمات والألحان فى الموسيقى ، والاشارات والايماءات وكذلك الحركات فى الرقص وخلافه . غير أن اللغه المنطوقه أو اللفظيه هى أكثر الوسائل والأدوات شيوعا فى التعبير عن الذات الانسانيه ، ومن أكثرها شمولا (١٨) .

لقد قدم البنيويون الكثير من الدراسات والأبحاث فى مجال اللغه ، ومن أوائل هؤلاء المفكرين "دى سوسير" الذى يعد بحق رائد علم اللغه البنيوى ، فقد أوضح أن لكل لغه جانبان : أحدهما فردى Individual والآخر اجتماعى Social ويمتنع علينا أن نفهم أو نستوعب أحد الجانبين بمعزل عن الجانب الآخر . كما أشار الى أنه يجب أن نفرق بين الكلام واللغه ، لأن الكلام ما هو الا جزء محدد من اللغه ، ومع ذلك فهو جزء أساسى لاغنى عنه ، وعلى هذا النحو يصبح الكلام فى الوقت عينه انتاجا اجتماعيا حادثا عن ملكة اللغه وعن أنماط التحصيل والاتفاقات التى ارتضاها وشرعها المجتمع لتقوم ملكة اللغه بوظيفتها وممارستها لدى الأفراد ، فاذا نظرنا الى اللغه فى عموميتها وكليتها نجدها متعددة الأشكال والصور والتعبيرات " مختلفة الأجناس ، منها ما يقع على حدود الفرد ومنها ما يتصل بحدود المجتمع ، ومع ذلك يصعب علينا أن نصفها فى قائمة أو نعدها من أصناف الوقائع البشرية ، طالما أننا لانستطيع أن تكشف عن وحدتها .

هذا بالنسبه للغه ، أما فيما يتعلق بالكلام فان الأمر على خلاف ذلك ، لأن الكلام يعبر عن كل قائم بذاته وهوقابل للتصنيف ، ومهما أعطينا الكلام المكانة الأولى فى مجال ظواهر اللغه فاننا بذلك نكون قد تعسفنا بادخال ترتيب طبيعى فى مجموع يمنع كل تصنيف غيره .

وفى مجال المقارنه بين اللغه والكلام ، أورد لنا " دى سوسير" تفرقه هامة ، على أساس أن " اللغه " - فى ماهيتها - نظام اجتماعى مستقل عن الفرد فى حين أن " الكلام" هو منها بمثابة التحقيق العينى الفردى . ومن هنا تكون الصلة بين " اللغه " و" الكلام" هى كالصلة بين " الجوهرى " و "الثانوى" ووفقا لذلك فان موضوع " علم الانسان" :هو " اللغه منظورا اليها فى ذاتها ولذاتها" ولئن كانت " اللغه

" تتضمن بالضرورة مجموعة من العناصر " ، الا أن هذه " العناصر " تقتضى " نضاما أو نسقا " (١٩).

والواقع أن البنيوية تعد محاولة جادة لتطبيق المعايير اللغوية على مسائل وأنشطه أخرى غير اللغه نفسها ، فلقد اعتمد " ليفى شتراوس " على منهج "سوسير" اللغوى فى صياغة معظم أفكاره ودراساته خصوصا فيما يتعلق بنظم القرابة ، حيث ساوى بين العلاقات القرابيه وبين العلاقات اللغوية (٢٠).

وهكذا نجد مدى تأثر شتراوس باللغويات البنائيه وبخاصه الأفكار التى نادى بها "سوسير" و"رومان جاكوبسون"، كما نراه قد امتدح أعمال جاكوبسون " لأنها قد أعادت النظر فى معتقدات "سوسير" وبصفه خاصه فكرته فى الاعتباطية (٢١).

وكذلك يتبدى هذا التأثر من جانب "ليفى شتراوس" فى اشتقاقه كلمة "بنيوية " من مدرسة اللغويات التى يتزعمها روما جاكوبسون " ؛ حيث كان جاكوبسون يتولى دراسة العلاقه بين الألفاظ والكلمات بدلا من تناول علاقة الكلمه بالموضوع التى تشير اليه ، فلايوجد معنى للكلمه يربطها بالأشياء ، ولكن الصورة هى التى تعطى للكلمة معنى ودلالة ، وأن بنية اللغه تتمثل فى قواعدها النحوية (٢٢).

ان ما يهمنا فى هذا السياق يتمثل فى بيان كيف اتخذت اللغه دلالتها عند البنيوية ، فما حققه علماء اللغه من نتائج تبدى لديها مقياسا ونموذجا لما يمكن أن يتحقق فى سائر العلوم الانسانيه ، وتؤكد البنيوية من خلال دراستها للغه على أنكل جزئيه منفردة لامعنى لها ، وانما تكتسب معناها ودلالتها فى علاقتها ببقية الأجزاء داخل المنظومة البنائية . ومن ثم فقد ركزت الدراسات البنيوية على دراسة اللغه دراسة علمية خالصه . وهى تدعو الى فهم اللغه كنظام له أجزاء فالبنية تعنى الترابط المحكم القائم بين مفردات اللغه الواحدة بحيث ينتظم كل أشكال وصور هذه اللغه : سواء فى مجال تركيب الأصوات أو فى تركيب الجمل والعبارات . وبالتالى لا يمكن - مثلا - دراسة أى لفظ فى نظام معجمى الا بعد دراسة بنية اللغه التى ينتمى اليها مثل هذا النظام ، والنظام الصوتى للغه ما ليس هو المجموع الآلى للعناصر الصوتيه بل هو على

الأحرى كل عضو ، أعضاؤه هى المفردات أو العناصر الصوتيه وبنيته خاضعة لقوانين .

ومن هنا فالنظر الى اللغه على أنها نظام عضوى ، والعمل على الكشف عن هذا النظام - هو ما تدعو اليه البنيوية (٢٣).

ب) فلسفه كانط

أما المصدر الثانى من مصادر البنائيه فيتمثل فى فلسفه كانط ، ذلك لأنها - أى فلسفة كانط - كانت تبحث عن نسق " قبلى ترتكز عليه مظاهر التجربه ، ويتألف من قوالب وأطر ذات طبيعة عقليه . كذلك تدعو البنيوية بدورها الى نوع من الثورة الكوبرنيقية مماثل لما كان دعا اليه كانط ، اذ تؤكد على على أهمية العلاقة الداخلية والنسق الكامن فى كل معرفة علمية . وتمثل البنيوية احدى المحاولات الجادة التى تستهدف جعل دراسة الانسان على غرار العلوم الدقيقة الراسخه ، ومن ثم كان للنموذج اللغوى الدور الأساسى والبارز فى هذا الصدد (٢٤).

ويمكننا أن نتبين أوجه التشابه والتلاقى بين البنيوية مع فلسفه كانط فى محاولة البحث عن النظام أو النسق الذى يضم داخله الأشياء ، وهذا النسق شامل ولازمانى ترتكز عليه مظاهر التجربة ، فهو سابق على الأنظمة البشرية ، بحيث تعتمد عليه تلك الأنظمة زمانيا ومكانيا فهو "قبلى" . وهاهنا نلاحظ مدى التشابه بين فلسفة كانط والبنيوية . كما يمكن القول بأن لدى دعاة البنائية على اختلافهم ميل الى فكرة النسق الشامل ووضع قوالب أساسية تندرج ضمنها الكثرة الماثلة فى عالم الوقائع ، لاشك أن هذه القوالب تماثل المقولات التى نادى بها كانط .

والواقع أن فكرة البناءات عند البنيوية تتلاقى مع فكرة المقولات عند كانط ، من حيث إنها تضم الأشياء وتنظمها فى أفكار . ومثلما تحدث كانط عن مقولات ذهنيه تكون بمثابة قوالب لابد أن يصاغ فيها كل ما يدركه المرء من العالم الخارجى ، ثم طبق هذه المقولات فى الجزء لخاص " بجدل العقل النظرى الخالص " من مؤلفه " نقد العقل النظرى الخالص " على نواتج التفكير الميتافيزيقى والتأمل البحت . فجعل منها ما يشبه البناءات التى تنتقل من مجالها الأصلى الى مجال مغاير ، بالمثل قام ليفى

شتراوس بنفس العمل ، حين أكد على أننا عندما نضع نظما اجتماعية أو نقوم بشعائر ، نحاكى طريقة ادراكنا للطبيعة ، ونحول النموذج الذى ندرك عليه الطبيعه الى المجال الثقافى ، بحيث يكون بناؤهما مشتركا . وهذا أمر مفهوم لأن الذهن البشرى هو الفعال فى الحالتين ولابد من وجود نقاط تشابه أساسية فى طريقة ممارسته فى كل مجال من المجالات (٢٥).

يتضح من ذلك أن للبنيوية جذور فى فلسفة كانط ، فمن المؤكد أن فكرة البنية أساسية فى الفلسفه الكانطيه ، غير أنه قد لايكون فى هجوم ليفى شتراوس العنيف على كل نزعه ذاتية متطرفة كما يبرر تسميه فلسفته باسم " الكانطيه " أو الفلسفة " الترانسندنتالية "(٢٧).

كذلك نستطيع أن نتبين أن تأثير الفلسفه الكانطية على الفكر البنيوى عند فيلسوف آخر من فلاسفتها ، وهو "فوكوه" الذى جسد فى شخصيته صورتين للفيلسوف : الأولى تتمثل فى صورة الفيلسوف الذى يتعلق بالأمور المعرفيه والمسائل النظرية الكبرى ، ويركز تفكيره بمشكلة الحقيقة . أما الصورة الثانية فهى تتصل بصورة الفيلسوف الذى ينخرط فى أحداث عصره وينفعل بقضاياه ، الأمر الذى جعل يحاول تجديد البحث فى نظرية المعرفه الفرنسية من بعد " باشلار" وما يترتب عليها تغيير مفاهيم وتاريخ الأفكار وكيفية دراسة الماضى ، ومن هنا كان "فوكوه" وفيا لكانط موافقا للغته الفلسفيه . وهذا ماتلاحظه حينما وضع كتابيه : " الكلمات والأشياء " و "اركيولوجيا المعرفة " حيث يتجلى تأثير كانط الواضح على كتابات "فوكوه " ، ولعل هذا ، وما دفع بياجية الى القول مخاطبا فوكوه : بأنه كانط جديد جاء لكى يوقظنا من سباتنا الدوجما طبقى الثانى (٢٧).

ومن كل ما تقدم نجد أن البنيوية قد استطاعت بما استهلمته من أفكار الفلسفه الحديثه وبخاصه أفكار كانط وأجزاء فلسفته وتصوراته حول بناءات الفكر البشرى فى المجلات المختلفه ، أن تلج كثيرا من ميادين ثقافتنا المعاصره .

واذاكانت البنيوية تكرس اهتمامها بلغة الانسان والمعرفه العلمية ، والعلوم

الانسانية المختلفه ؛ فذلك يرجع بالدرجة الأولى الى أنها قد استوعبت روح العصر وحاولت تفسير الواقع على هدى من الممارسات العلمية التى تتوخى انشاء مجموعة من النماذج ؛ أى صور المنظومات من القضايا والعلاقات والقوانين التى يركبها العالم على نحو يصبح معه قادرا على اكتشاف البنية المنظمة لهذا الواقع .

وفى ضوء ذلك تكون العلوم بنيوية ، لأن العالم لايدرس سوى انساق من العلاقات القائمة بين ظواهر متماسكة ، ولعل هذا ما عناه " ليفى شتراوس " فى معرض حديثه عن العلوم الانسانية ، حين قال :" أما أن تكون العلوم الانسانية بنيوية واما ألا تكون علوما على الاطلاق لأنها لاتملك القدرة على التبسيط العلمى اللهم الا اذا أصبحت بنيوية .

هذه نظرة عامة مختصرة لمعنى البنيوية ومصادرها فى اللغه والفلسفه الحديثه والمحنا فى عجالة خاطفه ما يميز المنهج البنيوى باعتباره نمطا من التفكير تبدى فى حياتنا المعاصرة ، ولعل من أهم العوامل والأسباب التى أدت الى ظهور الفكر البنيوى على الساحه المعاصرة يرجع الى الاهتمام الزائد والجهد المتواصل لتطوير العلوم الانسانية على غرار التقدم الهائل الذى أحرزته العلوم الرياضيه والطبيعية ، لأن جميع المحاولات التى بذلت من قبل ذلك لم تكن صائبه ولا مجدية نتيجة مغالاتها فى التجريد والاهتمام بالذات الانسانية على حساب العلاقات الموضوعية التى تربط بين الناس . ومن ثم ظهرت البنيوية وامتد نشاطها لتشمل كافة جوانب الحياة الاجتماعية لتتفادى مثل هذه الأخطاء بهدف تحقيق التطور المنشود فى العلوم الانسانية . يقول جان لاكرو : "البنيوية هى ذلك المنهج الذى ساعد العلوم الانسانية فى هذا العصر على تحقيق تقدم عظيم "(٢٨) .

(٣) خصائص الفكر البنيوى

لاشك أن تحديد الخصائص التى يتميز بها الفكر البنيوى ، تعد من الأمور الأساسية فى مجال تناولنا لمجالات الفكر البنيوى ، ويمكننا أن نتبين ذلك عند البنائيين أنفسهم ، الذين واصلوا مسيرة الاتجاه العقلانى الذى كان مسيطرا على الفلسفه الفرنسيه بأسرها ابتداء من ديكارت الرافض لكل المذاهب التجريبية ، كما حرص هؤلاء البنيويون على تفسير التجربة من خلال مبادىء عقلية بدلا من ارتكاز مبادىء العقل على محك التجربة .

ولعل من أبرز خصائص البنيوية ما نوجزه على النحو التالى :

١ - تحديد النسق الماثل أمامنا تحديدا موضوعيا على أساس أن الكل مكون من أجزاء وهو ما يعنى اصرار البنيويين على أن تفسير أى ظاهرة يبدأ فحسب عندما نتوصل الى تركيب الموضوع المراد دراسته ، أى أن من يقوم بدراسة الظواهرة البشرية لاينبغى عليه أن يعتمد فقط على الجانب المحسوس من الظواهر ، بل ينبغى أن يتعامل دائما مع بديل للموضوع يستدل عليه أو يركبه بطريقة استدلالية استنباطيـة .

٢ - يتفق البنيويون على أن موضوع الدراسة لايمكن أن يتطابق مع المحسوس ، فهذا الأخير هو المادة الأولية التى يتركب الموضوع ابتداء منها . ومع ذلك ، فالبنية ليست ماهية متعالية ، وليس لها وجود صورى ، بل ان لها وجودا خارجيا يجعلها مصدر العلاقات المحسوسة .

٣ - ينصب التحليل البنيوى أساسا على الدراسة الحالية للموضوع ، وهذه الدراسة تفترض ضمنا استقلال الموضوع بالنسبه لملابساتها التاريخيه والجغرافيه أو الوجودية .

٤ - تفترض هذه الدراسة احتواء الموضوع على معقولية ذاتيه ومستقله ، فهو يتضمن

فى ذاته تفسير طبيعته ووظيفته كما أنه مزود بقوانين تنظيم داخليه تصل اليها بواسطة التحليل .

٥ - تستبعد مثل هذه الدراسة تدخل العنصر الذاتى من دائرتها ، بحيث يتعذر الحديث عن مبادرات فردية بل إن " المؤلف " أو " الكاتب " لاينظر اليه الا على أنه عنصر ضمن بقية العناصر داخل البيئة .

٦ - العمل على استيعاب وفهم النسق موضوع البحث ، بحيث يتاح لنا الكشف عن بنيته ، ويتأتى ذلك برده عن نظامه المرتبط به الى نظام عقلى للانسان . وعملية الرد هذه تعد فى فحواها منهجا وليست مضمونا .

٧ - يسمح هذا الاستيعاب والفهم باكتشاب " الموضوع " وهو ما يمكن أن نطلق عليه القوانين المورفولوجية ، أو القوانين البنيوية ؛ وهى تعنى قوانين العلم التى تفسر نظام الأشياء والظواهر ، شريطة ألا يكون هذا النظام فى مجال التغير ، أى ليست قوانين عليه ، يسجل بها العلماء ما يشير الى عملية التغير ، وذلك لأن مثل هذه القوانين ليست اتفاقية ، لكنها تكون فى دائرة معاصرة للأشياء أو الظواهر أو صفاتها (٣٠).

واذا كان المذهب الصورى يفصل بين الصورة والمضمون ، فان هذا ما ترفضه البنيويه ، فهى ليست مذهبا صوريا ، بل هى على النقيض من ذلك ، تصر على التمييز بين الصورة والمادة يقول ليفى شتراوس :"إن الصورة توضح ذاتها بالتقابل مع المضمون الذى يعد المظهر الخارجى لها ؛ أما البنية فليس لها مضمون ؛ لأنها هى المضمون عينه ، الذى يكمن فى فهم التصور المنطقى لما هو واقعى . كما أن البناء ليس هو الواقع المحسوس ، بل انه منه بمثابة عقل صورى يعمل على تصفية الواقع (٣١) .

ومهما كان من شىء فقد أسفرت الأبحاث البنيوية عن تأثيرات عميقة وبالغة فى نشأة منطق جديد للبناءات يختلف عن المنطق الصورى هو النطق البنائى الذى يفرض على الباحثين فى المستقبل أن يعملوا على الكشف عنه ، هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى كان لهذا الصراع الفكرى أثره فى لفت النظر وتوجيه الاهتمام الى تدخل العقل فى

المعرفة دون الاقتصار على الملاحظة والتجربة وحدهما ، وذلك بعد الكشف عن باطن الوقائع بأسلوب استنباطى ، هذا يعنى أنه قد أصبح للفلسفه دورا خلاقا جديدا يتعين عليها أن تؤديه فى مجال العلوم الانسانيه بصفه خاصه . وهذا يؤذن أيضا بتحول خطير فى المنهج يمكن أن يعصف بالكثير من مبادىء الدوجماطيقيين الكلاسيكيين من أصحاب المناهج الامبريقيه الجامدة الذين استحال الانسان على أيديهم الى مجرد شىء جامد لاحياة فيها .

ويهمنا قبل أن نتطرق للحديث عن المجالات الرئيسية للبنيوية التى عرفت بها وكانت متأثرة بدراسات دى سوسير فى اللسانيات ، أن نشير هنا الى أن الفكر البنيوى قد ازدهر فى الستينات وأوائل السبعينات من هذا القرن ، كرد فعل على الفلسفه الوجودية التى كانت لها السيادة على الساحة الفكرية فى فرنسا . فقد رأى رائد البنيوية ليفى شتراوس أن محاولة الوجودية للوصول الى حقيقة الانسان عن طريق " التجربة المعيشة " محاولة فجة وساذجة تفشل فى معرفة القواعد والعلاقات الباطنية القابعة داخل الانسان ، اذ أنها تقف عند الظواهر الخارجية وتعتمد على تحليل المشاكل الفردية والخبرات الشخصية وترقى بها الى مستوى المشاكل الفلسفية . ويفضى هذا - فى رأى شتراوس - الى لون من ألوان الفلسفة السوقية (٣٢).

مجالات البنيوية

لقد اقترن التفكير البنيوى منذ نشأته الأولى بطريقة البحث فى مختلف المعارف والعلوم : فلكل علم مادة هى موضوع دراسته ، ولكل مادة بنية ، ويكفى أن يحدد الباحث المختصص هدفه فى استخلاص واكتشاف خصائص بنية تلك المادة حتى ينعت نفسه أو ينعته الآخرون بصفة الباحث البنيوى ، بل أن منهج البحث فى مجال معرفة من المعارف اذا ارتسم لنفسه غاية الكشف عن العلاقات التى تنتظم بها الأجزاء ليتألف منها البناء الكلى للزم ادراجه فى دائرة البنيوية . ولعل هذا هو الذى أتاح للفكر البنيوى أن يتغلغل فى العلوم الطبيعية والرياضيات وعلوم الحياة بعد تصديه لمعالجة العلوم الانسانيه من التاريخ وعلم الاجتماع الى علم النفس وعلم الأجناس البشريه (٣٣).

ولئت تبنى التفكير البنيوى مبدأ التسليم بمعقولية الظواهر وحدد علاقة الفكر بها على أساس قدرته على التحكم فيها ، فانه قد واجه البنيويون انتقاددات شتى من طرفين متقابلين جوهريا : المثاليين والماديين ، غير أن بعض رواد المادية الجدلية وجدوا أنفسهم مضطرين الى التوفيق بعد أن بادروا باستلهام البنيوية ضمن منظور الحداثه الرائدة . وكان هذا المأزق - أن صح التعبير - من أكبر الحوافز التى دفعت بالبنيوية الى ارتداء ثوب النظرية الفلسفيه المتماسكة(٣٤) .

أ) **البنيوية والمعرفة:**

اذا كانت البنيوية تستند الى مواقف نوعية حيال المعرفه وتنطلق من مصادر متميزه تجاه أصول العلم . فلا أقل من محاولة على الموقف البنيوى بصدد أهم مجال من مجالاتها ألا وهو المجال المعرفى (٣٥).

والواقع أن البنيوية قد نظرت الى المجال المعرفى نظرة خاصة ، بحيث اتخذت بعدا انثروبولوجيا واجتماعيا وحضاريا ، تجاوزت بموجبه الوسائل التقليدية التى قد نجدها فى نطاق معالجة مشكلة المعرفه .. ويتبدى ذلك فى تنوع الاهتمامات التى انطلقت منها البنيوية ووسائلها فى تناول مختلف القضايا . ففى مجال اللغه نلاحظ كيف أن الأبحاث

الناجحة التى قام بها سوسير وجاكوبسون وتروبتسكوى وغيرهم من البنيويين ، قد تمت على أسس علمية خالصة . وفى مجال الأنثروبولوجيا نجد شتراوس يقوم بتطبيق منهج التحليل البنيوى على دراسة المجتمع البدائى مشيرا الى وجود قدرات وخصائص ثابته ملازمة للفكر البشرى ككل . كما اهتم فوكوه بدراسة الانساق المعرفيه خلال عملية تطور الفكر الغربى (٣٦).

وفى ضوء ذلك وصف فوكوه معارف وأفكار عصر النهضة بأنها محددة مغلقة على ذاتها يسودها الوحدة والتشابه . ومن هنا فقد ذهب الى أن البناء المسيطر على ذلك العصر يماثل المجال المرجعى أو الفلك الدائرى المقفل . أما بالنسبه للعصر الكلاسيكى والذى يشمل القرنين السابع عشر والثامن عشر - فإن معارفه وأفكاره تتسم بالنظام ، سواء فى العلوم أو الفنون أو النظم السياسية . وينتهى فوكوه الى القول بأن نموذج المسطح هو النموذج الذى يعبر عن روح النظام المسيطر فى هذا العصر . أما القرن التاسع عشر فيرى فوكوه أن " التاريخ" قد حل فيه محل " النظام" وعندما يصل الى المرحلة المعاصرة يقول أن النموذج الهندسى الذى يعبر عنه هو المثلث : لأن العلوم السائدة فيه تنقسم الى ثلاثة أنواع : العلوم الرياضية والطبيعية ، والعلوم التجريبية مثل اللغه والبيولوجية والاقتصاد والفكر التأملى الفلسفى .

وهكذا نرى كيف أن فوكوه حاول من خلال رؤيته التاريخيه أن يعبر عن البناء الداخلى الذى يميز كل عصر من عصور الفكر الأوربى الحديث . غير أنه قد أصدر أحكاما تعسفيه تعمل على اختزال العصر كله فى فكرة واحدة وبناء ثابت ، مع أنه من المؤكد أن فى كل عصر من العصور التى أوردها فوكوه اتجاهات وتيارات فكرية متباينة تصدع مقولات التعميمية . فليس عصر النهضة - على سبيل المثال - هو عصر الانغلاق والوحدة والتشابه بقدر ما هو عصر الشك والقلق والأشكالات الفلسفية والأفكار القلقة الوثابة . كما يتضح قصور فوكوه وعجزه عن فهم واستيعاب مغزى التحولات من عصر الى عصر ، وبالتالى لم يفسر لنا التغيرات التى كانت تطرأ على الفكر الأوربى فتجعله ينهى عصرا ويبدأ عصرا جديدا . ولعل ذلك يرجع بالدرجة الأولى الى تجاهل أو عدم اكتراث فوكوه بحركة " التاريخ" و"التطوير" وتركيز اهتمامه على

الثوابت البنيوية التى تكمن داخل التغيرات الظاهرية التى نظر اليها على أنها تغيرات سطحية وعرضية فى حين أنه يعتبر الثوابت البنيوية هى الأصل والجوهر . بيد أن هذا النقد لايوجه الى فوكوه فقط وانما يتجه لكل الفلاسفه البنيويين الذين اهتموا بالبناءات الساكنه وأهملوا التاريخ والتطور والصيرورة .

ويطلق فوكوه على منهجه اسم المنهج الأركيولوجى أو الحفرى الذى يستهدف من ورائه الى القيام بدراسة متعمقه لكل عصر من العصور التاريخية . يقوم فيه بالحفر فى بنيات ذلك العصر للوقوف على المجال المرفى والمرجعى الذى يقبع وراء التجارب والخبرات التى مر بها ذلك العصر لكن الانتقال من المجال المعرفى لعصر ما الى المجال المعرفى لعصر لاحق لايخضع عند فوكوه لأى تفسير عقلى ولا صلة للمجال الجديد بالمجال القديم . لأن المجال الجديد يمثل دائما قطيعه ابستمولوجية مع المجال السابق عليه طالما أن التاريخ فيما يرى فوكوه غير متصل الحلقات ويخضع فى سيره وتطوره للتغيرات الجذرية المفاجئة التى تحركها قوى مجهولة ، هى التى تتحكم فى حركة التاريخ كما أنها أيضا المسئولة عن ظهور الهياكل البنائية (٣٧).

وعلى أية حال اذا حاولنا استنباط أصول المجال المعرفى برؤية بنيوية جاز لنا أن نزعم بأن ادراك الواقع فى باطنه يمكنه أن ينفصل عن ادراك الواقع فى ظاهرة وذلك بالاستناد الى أن ما يستتر من الشىء هو بنيته ، وأن هذه البنية تحكمها قوانين يمكن أن تتجلى على السطح ويمكن أن تظل فى حالة كمون متوارية فى حيز الخفاء ، لايجلوها الا ادراك نوعى يخرج عن الادراك العادى .

أو بعبارة أخرى فان للأشياء الماثله فى الواقع وجودها النوعى ، وهو وجود مجرد يكاد ينفصل عن الادراك المباشر ، ثم للأشياء وجود يطابق الصورة التى ندركها عليها ، والذى يجعل هذا الوجود الثانى يتلو الوجود الأول هو اختلاف هذه الصورة من شخص لآخر بل وتختلف الصورة عند الشخص الواحد حسب ظروف الزمان والمكان .

بل ان ادراك الانسان للظاهرة الواحدة قد تتخذ عدة ألوان مختلفه بحسب الوصف اللغوى الذى يأتيه سواء من متحدثين مختلفين أو حتى من متحدث واحد فى ظرفين

متباينين ، وهكذا تستقر حقيقة الأشياء عند كل واحد منا على صورة متفردة هى بمثابة تل هرمى بنيته الظاهرة كثيرا ما تنضج ببنية خفيه ذات تموجات متدرجة الألوان والصور.

ومن ثم فان خصوصية المجال المعرفى الذى حاولت البنيوية بلورته فى طيات عملها التنظيرى تكمن فى أن قيمة الوجود لدى الانسان تتحدد بالعملية الادراكية التى مدارها الفهم تتحدد جوهريا باكتشاف البنية ما ظهر منها وما خفى ، ومن هنا كان الانسان هو محور الفلسفة البنيوية من حيث هو المناط به اكتشاف حقائق الظواهر فى تجليها كما فى احتجابها ، ومن حيث هو الحائز لوسيلة التعبير عما يستخرجه من خصائص الأشياء .

وخلاصة القول تؤكد البنيوية على أن المعرفة تحدث بأسرها فى الفكر ، وأن العقل هو مقر الحقيقة ، فهو الذى يكتشف البنية الكامنة فى الواقع ، والبنية هى نسق من المعقولية ، وعن طريقها يستطيع العقل أن يتوصل لمعرفة الواقع .

ب) علم التاريخ من المنظور البنيوى :

لاشك أن البنيوية لم تعد مجرد مفهوم علمى أو فلسفى يجرى على أقلام علماء اللغه وأنصار الأنثروبولوجيا وأصحاب التحليل النفسى وفلاسفة الابستمولوجيا أو المهتمين بتاريخ الثقافة فحسب ، بل هى قد أفردت عدة دراسات وأبحاث فى المجال التاريخى ، ويتبدى ذلك فى موقف ليفى شتراوس من علم التاريخ والمعرفه التاريخية ، ذلك الموقف الذى يشكل نقطة الخلاف بينه وبين سارتر ، ويدور هذا الخلاف حول ما اذا كان من الممكن أن يحتل التاريخ مكان الصدارة عند البحث عن حقيقة الإنسان (٤٠).

على أننا لو أمعنا النظر فى كتاب " ليفى شتراوس " الفكر المتوحش الذى ضمنه موقفه من " التاريخ " نجد موقفه شبه معاد للتاريخ . لامن حيث كونه معرفة بالماضى ، أو دراسة لأحداث البشرية الغابرة ، بل من حيث هو مقولة فلسفية كبرى أصبحت تمثل فى القرن التاسع عشر " فكرة مسبقة " أو رأيا مبتسرا "

والواقع أن التاريخ - فى رأى شتراوس - هو أقرب ما يكون الى " أسطورة " تحيا جنبا الى جنب مع " أساطير" أخرى . ومن ثم فإنه ينبغى أن تكون دراسة سيرة الأسطورة بنفس المناهج التى تدرس بها البنيوية سير الأساطير الأخرى (٤١).

ومن هنا كان هجوم " شتراوس " على دعاوى بعض المؤرخين وبعض فلاسفة التاريخ التى تذهب الى القول بأن للأبحاث التاريخية فضل اضفاء المعقولية على بقية العلوم . ويؤكد " شتراوس " أن هذه الدعاوى والمزاعم ناشئة عن سوء الفهم الخاص بمناهج البحث التاريخى وكيفية ترتيب الأحداث . ذلك لأننا اذا افترضنا أن الواقعة التاريخية هى شىء حدث فى الزمان ، فلنا بعد ذلك أن نتساءل عما إذا كان شىء ما قد حدث بالفعل ! ان أحداث أى ثورة من الثورات أو أى حرب يمكن ارجاعها الى مجموعة من الحركات النفسية والفردية ، وكل واحدة من هذه الحركات هى ترجمة لتطورات لاشعورية ، وتلك الأخيرة يمكن أن ترجع بالتحليل الى ظواهر مخية ، وهرمونية وعصبية ، ومرجعها كلها الى عوامل وأسباب فيزيائية وكيميائية .

وفى ضوء ذلك ، فان الواقعة التاريخية ليست من معطيات التجربة ، ذلك لأن

المؤرخ هو الذى يركبها بالتجريد كما لو كان مهددا بالتراجع الى ما لانهاية . فالحدث التاريخى اذن ليس الا نتاج مجموعة من العمليات المنهجية ، والتى توقف تفتيت الواقع الذى يخشاه المؤرخ أما الزعم بأن للتاريخ فضل معرفة تطور المجتمعات البشرية كعملية متصلة فهى لاتصمد أمام التحليل (٤٢).

غير أن ليفى شتراوس لايرفض التاريخ رفضا كليا شاملا ، كما أنه لاينكر التغير الذى يحدث للمجتمعات ، بل إن ما يرفضه صراحة هو ذلك " الدور " الذى ينسبه المعاصرون الى " التاريخ " ، حيث أعطوا الصدارة للبعد الزمانى على البعد المكانى ، نظرا لأننا قد اعتدنا أن نتعقل الاستمرار والتغير من خلال اعادة استنباطنا للزمان ، فى حين أننا ندع المكان نهبا للظروف الخارجية الخالصة . ومن هنا فاننا ننظر الى " التاريخ" على ما يبدو لنا وكأنما هو " ذكريات البشرية " وحينما نعمد الى اسقاط هذا الوهم على " الماضى " ، فاننا عندئذ لانلبث أن نحيل استمرار الزمان الى " استمرار تاريخى " . وسرعان ما يتورط الفيلسوف فى خطأ أفدح : ألا وهو تخيله لوجود " اتصال " مزعوم ، أو " تتابع " موهوم ، قد يسمح لنفسه أن يطلق عليه اسم " التقدم " متناسيا أن الوقائع والأحداث التاريخية قد تم رصدها وتصنيفها واختيارها ، وتنظيمها ، وفقا لبعض المنظورات الفكرية " النظرية " ، والمصالح الطبقية ، والنماذج التقسيمية . ولهذا يؤكد شتراوس أن هذا " الاستمرار تعسفى أو اتفاقى محض (٤٣).

ان الحدث التاريخى يتصف بأنه فريد ، ومفرد ، وجديد ، وهو ما يعنى أن الأحداث والوقائع التاريخية تختفى وراءها دائما حالات نفسية وفردية . هذا بالاضافه الى أن التاريخ اذا نجح فى الوصول الى تفسير معين فيبدو أن هذا التفسير قد أعطى مسبقا بواسطة المؤرخ نفسه . وهذا الأخير يظل سجين ادراكه الخاص للمعطيات التاريخية ، وهو ادراك حسى بالدرجة الأولى ، يكون بمثابة نقطة البداية للعمل ، وأيضا للمعرفة التاريخية(٤٤) .

ومن السهل علينا أن نلاحظ وجود فارق واضح بين الموقف البنيوى من فكرة التاريخ والتطور ، وبين الموقف الذى ساد بوجه خاص فى الأوساط الفلسفية الفرنسية فى

فى أوائل القرن العشرين ، والذى يؤكد أن العصور اللاحقه تتجاوز تصورات العصور السابقه ، بل تتخلى عنها نهائيا . وقد تمثل هذا الموقف الأخير فى الفكرة التى اتخذ منها عالم الاجتماع الفرنسى " ليفى بريل " نقطة ارتكاز لأبحاثه ، أعنى فكرة وجود عقلية " قبل المنطقية " عند المجتمعات البدائية ، كما تجلت فى فكرة " مراحل العقل " عند " ليون برنشفيج " التى ينتقل فيها العقل العلمى الانسانى من مرحلة الطفولة الى مرحلة النضج . هذه الأفكار تفترض انتقالا من الجهل التام الى المعرفة الناضجة المكتملة ، وتصور تاريخ العقل البشرى بأنه تواصل وصعود مستمر الى أعلى دون وجود أى عنصر مشترك بين القديم والحديث . وهذا ما ترفضه البنائيه ، لأنها تؤكد على مفهوم " التوازى " بين التصورات القديمة والجديدة ، فالعقل البشرى يسير بخطى نحو النمو فى كل الأحوال عن طريق تعميق التفسيرات التى يقدمها للطبيعة ، وتحويلها من مرحلة التقيد بالمظاهر الخارجية الى مرحلة كشف القوانين الكامنه ، ولكن أساس هذه التفسيرات يظل واحدا ، والعناصر الأساسية باقية ، والمقولة الأساسية فى فهم التاريخ هى مقولة التوازى لامقولة المسار الخطى الصاعد .

والواقع أن كثيرا من الباحثين فى مجال تطور الحضارات قد اعترفوا بهذا الموقف الذى تتبناه البنائية حتى قبل أن تفصح البنائية عن نفسها بوصفها مذهبا فكريا متميزا . فمنذ وقت بعيد لاحظ مؤرخو الحضارة أن كثيرا من ضروب التفكير العلمى والاختراع التكنولوجى التى عرفها العصر الحديث ، ليست اضافة مطلقة لشىء لم يكن موجودا من قبل ، بل هى تنمية لبذرة سبق ظهورها فى عصور ماضية . وهكذا عرفنا ، من تاريخ العلم والفلسفة ، أن نظرية التطور كما ظهرت فى القرن التاسع عشر انما هى مجرد صياغة جديدة لفكرة نستطيع أن نعدها من البذور الثابته فى العقل البشرى .

ويهمنا الآن قبل أن نختتم الحديث عن علم التاريخ من المنظور البنيوى ، أن نعرض فى عجالة لثلاثة أمور هامه تتصل بمسألة النزاع بين البنائية والتاريخ .

١ - أن البنيوية تستطيع أن تجد وسيلة ما للتوفيق بين نزوعها الى الثبات ونزوع المؤرخ الى الحركة والتغيير ، وذلك عن طريق ألتفرقة بين الاطار العام والمضمون الداخلى لكل حدث تاريخى .

٢ - لم تهدف البنيوية أصلا الى معارضة المؤرخين حيث أعلنت معارضتها للنزعة التاريخية بل كل ما هنالك يتحدد فى محاربة هذه النزعه فى مجال العلوم الانسانية الأخرى،ولم تعارضها فى مجال التاريخ ذاته.وكان هدف البنيوية الأساسى ينصب فى رفض وانكار التفسير الذى ساد زمنا طويلا ، والذى يحيل الظواهر الانسانية الى منشئها وتطورها فحسب ، وبالتالى تعجز وتفشل فى الكشف عن عناصر الثبات فيها .

٣ - أرادت البنيوية ، فى معارضتها للنزعة التاريخية ، أن يتم تغيير منهجى جذرى وحاسم فى مجال العلوم الانسانية . ويمكن القول بأن البنيوية استهدفت بهذا التغيير محاكاة ذلك الانقلاب الأساسى الذى طرأ فى مجال العلوم الطبيعية بعد أن تخلت ف أوائل العصر الحديث عن الطريقة الكيفية فى فهم وتفسير ظواهر العالم الطبيعى ، واستبدلت بها الطريقة الكمية . فهناك أوجه شبه متعددة بين ما تسعى البنيوية الى تحقيقة فى مجال العلوم الانسانية ، وما حققته العلوم الطبيعية فى تلك المرحلة الانتقالية الحاسمة من تاريخها .

وعلى أية حال فان طبيعة الصراع الذى نشب بين البنيوية والنزعة التاريخية ، له ما يبرره كما سبق ، بحيث يمكن أن ندرك بوضوح الهدف الفلسفى والمنهجى الذى دفع البنيوية الى رفض المنهج التاريخى بصورته التقليدية (٤٥).

ومن ثم نستطيع الآن أن ننتقل الى تناول المجال الآخر ، وأعنى به علاقة علم النفس بالبنيوية .

جـ) علم النفس والبنيوية :

لاشك أن الصلة بين البنيوية وعلم النفس التحليلى صلة وثيقة ؛ ذلك لأن الفكر البنيوى يهتم بدراسة سائر الأنشطة الفكرية والسلوكية للفرد والمجتمع وربط بعضها ببعض قديمها وحديثها ، وأن يكون كل نشاط فى حد ذاته نظاما متكاملا يتوخى الوصول الى النظام الكونى الأصيل والبناء الكلى للعقل البشرى ، فنستطيع بذلك أن نبلغ الحقيقة الكبرى التى تكشف القناع عن معظم الأمور المعقدة على المستوى الفردى

والاجتماعى وعلى مستوى العلم الطبيعى والنتاج الفكرى .

ومن ثم فالبنيوية تبحث عن المستوى العميق كالذى ترتكز عليه الحضارات الانسانية وذلك من خلال تجاوز الظاهر الى الباطن ، فنحن عندما نقوم بالبحث عن العناصر البنيوية لظاهرة حضارية فاننا فى الوقت عينه نقوم بالكشف عن طبيعة الانسان فالفكرة العامه التى يؤكدها " ليفى شتراوس " تتمثل فى أن الشكل المعقد للحياة الاجتماعية يتكون من قواعد ونظم من السلوك تعد على مستوى الفكر الذاتى والاجتماعى انعكاسا للقوانين الكونية التى تنظم النشاط اللاشعورى للعقل البشرى ، ويتجلى شكل بناء العقل البشرى وفحواه فى العلاقه بين العناصر المكونه لنظم الحياة بعضها ببعض وليس من العناصر المفردة فى حد ذاتها .

ومن هنا نلاحظ مدى الارتباط بين البنيوية وعلم النفس التحليلى خاصة وأن ليفى شتراوس يؤكد على وجود ما يسميه بالنشاط اللاشعورى للعقل البشرى ، فمن المعلوم أن علم النفس يرد الأنماط السلوكية الى البناء السيكولوجى الواحد للجنس البشرى ، ذلك البناء الذى يقبع فى اللاشعور ؛ أى أن علم النفس - شأنه شأن البنيوية - يبدأ من الظاهر ليبلغ الباطن ، ونقطة الالتقاء هذه بين علم النفس والبنيوية هى ما يؤكدة البنيويون أنفسهم ، من حيث أن البنيوية تتفق مع علم النفس فى أنها ترى فى سلوك الانسان معنى أعمق بكثير مما يتراءى من المظهر السطحى وتتفق معه أيضا فى أنه لكى تصل الى تحقيق هذا الهدف لابد من تجاوز دائرة الفرد الى دائرة أشمل (٤٦).

ولعل من أهم ما يميز بنيوية شتراوس يتمثل فى قيامها على مسلمات أساسية تبدأ بوجود النفس الانسانية ووحدة هذه النفس واستمرارها أو دوامها ثم وجود اللاشعور الذى يتضمن الوظيفة الرمزية والبناءات (٤٧).

لقد كان ليفى شتراوس متفقا مع علم النفس التحليلى عند فرويد فى مسائل كثيرة ، ربما كان السبب فى القول بأن آراء فرويد تعد من المصادر الأساسية التى استمد منها شتراوس تفكيره . ويتبدى ذلك بوضوح فى كتاباته حيث يؤمن شتراوس بوجود أساس لاشعورى عميق لدى الانسان ، الى جانب شعوره الواعى . وكذلك كان مثل

فرويد يؤمن بوجود جانبين ، أحدهما طبيعى ، والآخر نتاج للثقافه ، فى الانسان . والجانب الأول هو الذى أطلق عليه فرويد اسم " الـ هى Id " ، أما الجانب الثانى فهو الأنا Ego " الذى يعبر عن تأثير الثقافه بمعناها الشامل فى الانسان . وأيضا يعتقد شتراوس ، مثلما اعتقد فرويد ، أن الأسطورة نوع من الحلم الجماعى فى المجتمعات البدائية ، وهو حلم له لغته الرمزية الخاصة ، القابلة للتفسير ، وهذا التفسير كفيل بالكشف عن المعانى الخفية للأسطورة ، واستخلاص المبادىء الأساسية لتفكير الانسان البدائى من خلالها. ولكن هذه المبادىء التى توجد بطريقة لاشعورية فى ظاهرة جماعية ، هى الأسطورة البدائية ، لاتقتصر على المجتمعات البدائيه وحدها ، بل أنها تنسحب كذلك على كل العقول البشرية بشكل عام . فالمبادىء الأساسية التى نتوصل اليها عندئذ ، تؤثر فى عقولنا مثلما تؤثر فى عقـــول البدائيين ، وهى تشكل نمطا من المنطق الكلى الشامل ، الذى يتمثـــل عند هؤلاء البدائيين بصورة نقية خالصة ، قبل أن نضيف اليه نحن منطقنا الخاص ، الـــذى تفرضه الظروف والأوضـــــاع المعقدة لحيـــاة الإنســـان المعاصـــر (٤٨).

ومن ناحية أخرى اذا كان فرويد قد طالعنا فى آخر كتابه " تفسير الأحـــلام "عن " ذات حقيقة " قد حققت قدرا من الانسجام مع " الهو " يكفل لها " بنية " متسقه متكاملة ، فمن المؤكد أننا هنا بازاء انتقال من حالة العماء والاختلاط والفوضى ، الى حالة من التنظيم والتنسيق والبناء ، هى بمثابة تعبير عن اكتساب " الهو " لطابع " البنية " . ومعنى هذا أن " حديث الهو " - فى نهاية المطاف - ليس مجرد " لغة " عادية (تقوم على نسق من المتقابلات الضمنية على طريقة دى سوسير وانما هو مقال يحمل معنى " التحرر" وكأنما هو " الخبر السعيد" أو" البشرى المفرحة " التى تمثل فاتحة " عهد المحبة " ! ولعل هذا ما عناه فرويد نفسه حين كتب يقول : " لقد ظهر بوضوح - من خلال تطور البشرية ، كما هو الحال أيضا من خلال تطور الفرد - أن الحب هو الشىء الأساسى ، إن لم نقل أنه العامل الوحيد فى كل تاريخ الحضارة ، نظرا لأنه هو الذى تسبب فى الانتقال من مرحلة الأنانية الى مرحلة الغيرية " . ولو كان لنا أن نضيف كلمة الى ما نادى به فرويد ، لأمكننا القول بأن هذا الانتقال قد تحقق من خلال :"البنية"

نفسها، بشرط أن تذكر دائما أنه حين تصبح للاشعور بنيته المتسقه ، فهنالك تكون "الذات" قد حققت ما تتطلع اليه من توافق وانسجام ، وثراء وقوة .

ولكن على الرغم من أوجه التشابه هذه بين علم النفس والبنيوية ، الا أننا لانعدم وجود صور من الاختلاف والتجاوز بينهما ، ويتمثل ذلك فيما يلى :

أ) اذا كانت البنيوية تنظر الى السلوك الفردى من خلال عمق التاريخ البشرى وعمق الكون ككل ، فان علم النفس يحدد هذا السلوك ببيئة الفرد ، ولهذا نجد البنيوية لاتفرق بين حالة الشعور وحالة اللاشعور فحسب كما هو الشأن فى علم النفس وانما تضيف حالة وسطا قد نصطلح على تسميتها بحالة الاستشعار وهى حالة " بين بين" التى يوضحها النبيويون بالمثال الخاص بعمليةالمشى : فالمشى - مثلا - ليس فعلا شعوريا كاملا ، كما أنه ليس فعلا لاشعوريا خالصا ، بمعنى أننى عندما أسير فى الطريق لا أكون واعيا تماما بحركة السير هذه وكيف أنجزها ، ولا أستطيع فى الوقت نفسه أن أزعم أن السير مصدره منطقة اللاشعور كما هو الحال فى بعض أنماط السلوك التى ترجع الى اللاشعور . ويرى البنيويون أن كثيرا من أفعال الانسان وكذلك سلوك المجتمع تتم فى هذا المستوى من " الاستشعار " ومثال ذلك كثيرا من أنماط السلوك الجماعى التى يمارسها الفرد بوعى ولكن دون علم بدلالتها وبأسبابها .

ب)أما نقطة الاختلاف الثانية بين علم النفس التحليلى والبنيوية فذاك لايفصل فى كشفه عن العالم الداخلى للانسان بين التأويل والتفسير ، ويتضح ذلك حينما نود أن نفسر حلما من الأحلام لابد أن نبدأ بتأويل رموز الحلم . ومعنى هذا أننا لابد أن نكون على معرفة بالأنماط السيكولوجية للشعور ، وأن نكون على احاطة تامة بالطريقة الكلية التى ترصد فيها عناصر الحلم ، وفى هذه الحالة يكون الفهم والتفسير شيئا واحدا ، أما بالنسبة للبنيوية فهناك مرحلتان متلازمتان لتحقيق هدفها : مرحلة الفهم والادراك وهى تعنى بالوصف الجاد لتكوين ذى مغزى وذلك فى علاقته بوظيفته ، والمرحله الأخرى هى خطوة أبعد وهى جوهر العمل البنيوى وتتمثل فى الربط بين التكوينات المختلفه فى أطار بناء أكثر شمولا تتضح فيه الدلالة

البعيدة لهذا التكوين الجزئى داخل البناء الكلى . ومعنى هذا أن مظاهر الوعى تقع على خط له نهايتان واذا فهمنا النهايتين استطعنا أن نفهم ما بينهما : ففى نهاية هذا الخط يقع السلوك المتعالى للمجتمع والفرد ، والفرد يخضع لهذ السلوك سواء ارتضاه أم أباه ، وفى الطرف الآخر توجد المشاكل الفردية وهى التى تتدخل بقوة لكى تغير المنطق الاجتماعى ، وبين هذين الحدين يقع القدر الأكبر من الوعى والسلوك الفردى على هيئة خليط مبنى على أساس الواقع الاجتماعى المعقد(٥٠) .

ج) وتتمثل نقطة الاختلاف الثالثة فى أن مدرسة التحليل النفسى قد أحالت الأساطير والأحلام والهفوات الى مجال اللامعقول والعشوائى على أساس أنها تعبر عن الذهن الانسانى فى تلقائية وعفويته غير الموجهة . أما البنيوية فقد نظرت الى النواتج الذهنية على أنها تعبر عن نشاط موجه لتحقيق غايات وأهداف معينة ، وأن لها منطقها الخاص الذى ينطبق على مجال محدد ويختلف بذلك عن المنطق الشامل الذى تحاول الحضارة الحديثه تحقيقة ، ولكنه يظل مع ذلك منطقا له دقته وانضباطه فى نطاقه الخاص .

د) أما نقطة الاختلاف الأخيرة فتتلخص فى أن البنيوية تلغى المركز المميز للحالة الحاضرة ، أو للباحث نفسه ، قياسا على الحالة الماضية التى كان يحياها البدائيون . بينما فى التحليل النفسى نجد أن المحلل يحتل مكانة متميزة بالنسبة الى الشخص المفحوص الذى يحلله ، ويعد نفسه مختلفا عنه ، مادام قادرا على الغوص فى أغوار المريض والكشف عن أبعاد أعمق من تلك التى يرويها عن تجاربه العفويه للمحلل . أما بالنسبه للبنيوية ، وفى جانبها التحليلى عند لاكان Lacan فان المحلل نفسه لايعد نفسه سليما وسويا بالقياس الى من يحلله ، ولايتخذ منه أى موقف متميز .

وعلى أية حال ، فاذا استثنينا هذه الاختلافات والجاوزات البسيطة ، فمن المؤكد أن علم النفس التحليلى قد أفاد البنيوية فى مجال دراستها ، حيث قدم التحليل النفسى أحد المبادىء الرئيسية فى فهم الانسان ، هو أننا اذا أردنا معرفة العقل الانسانى فى أصوله وجذوره الأولى ، التى لاتزال تولى تأثيرها علينا حتى اليوم ،

فيتعين أن نقوم بتحليل ذلك " اللاشعور الجماعى " للإنسانية كما يتمثل فى أساطير البدائيين (٥١).

أما الآن فعلينا أن نختتم حديثنا عن مجالات البنائية بالاشارة الى الأنثروبولوجيا والبنيوية كما تبدت فى كتابات علماء الأنثروبولوجيا .

د) الانثروبولوجيا والبنيوية :

تعرضنا فيما سبق الى أهم مجالات البنائية التى تنصب على محاولة البنيوية أن تتعامل مع اللغة باعتبارها الصورة المشتقة من الواقع ، وهو ما سمح لها بتوليد الظواهر بعضها من بعض عن طريق التحولات الذهنية تماما كما يتولد النص من النص .

ولعل أهم ما يمكن أن نستنبطه من خصوصيات البنيوية على صعيد القراءة النظرية هو الموقع الجديد الذى احتله الانسان ضمنها ، فالفلسفات المألوفة كانت تنطلق من شىء ما هو واقع خارج الانسان لتنتهى الى شىء ما يتجاوز حدود الانسان بعد أن تكون قد غاصت فى عالم الوجود عبر الكائن البشرى ، فالانسان من حيث هو بذاته قد كان واسطة العقد فى القلق الفلسفى ولكنه لم يكن فى حد ذاته علة وجوده ولاغاية مطافه :

وجاءت البنيوية فاذ بها قد أخرجت الانسان من هذا التوسط الرتيب وذلك بعمليتين متكاملتين : الأولى تم فيها عزله عن الأشياء فلم تعد تتخذه مرجعا أوليا فى استقراء الظواهر ، أما الثانيه اعتبرته حكما عليها بما أنه المستنبط لبنيتها ، فاذ به موضوع لفلسفتها بشكل جوهرى وأساسى ، ولذلك كانت أخصب الحقول فى مجال التحليل البنيوى هى الحقول الأشد اقترانا بالانسان بدءا باللغه والمعرفة والتاريخ ومرورا بعلم النفس والأنثروبولوجيا (٥٢).

ولاشك أن الجهد العلمى الكبير الذى قام به ليفى شتراوس فى مجال العلوم الاجتماعية بصفة عامة . والأنثروبولوجيا بصفة خاصة ، قد ساهم فى احداث تغير جذرى هائل ، فى ميدان " ابستمولوجيا " العلوم الانسانية ، ليس فى كونها مجرد " معارف" أو نظريات وضعية " ، بل بوصفها أيضا " نظريات نقدية " . واذا كان شتراوس نفسه يؤكد مرارا - على القول بأن " البنيوية الأنثروبولوجيا " منهج ، لا نظرية ، فذلك

لأنه قد أراد أن يثبت بما لايدع مجالا للشك دور " العقلانية العلمية " فى صياغة " الظاهرة الاجتماعية " باعتبارها واقعة علمية " ، تقبل التحليل والصياغة الرياضية المضبوطة والدقيقة ، شأنها فى ذلك شأن سائر الوقائع الطبيعية ، واذا كان الباحثون قد اعتادوا على وصف " انثروبولوجية " ليفى شتراوس بأنها " انثروبولوجية بنيوية " ، فان ليفى شتراوس نفسه لايجد فى هذه التسمية سوى صيغة تكرارية جوفاء ، ليست الا من قبيل " تحصيل الحاصل " : اذا ليس فى مقدور " الانثروبولوجيا " أن تكون الا " بنيوية " ، خصوصا اذا شاءت لنفسها الا تبقى أسيرة للمعرفة التجريبية ، واذا حرصت كذلك على الاستعاضة عن أسلوب " التفسير السببى " (القائم على مبدأ " التعاقب ") بأسلوب التفسير البنائى (القائم على مفهوم " النسق" أو " النظام ") (٥٣).

يقول ليفى شتراوس :" أن الانثروبولوجى يكشف فى المجتمع عن مجموعة بناءات تنتمى الى أنماط مختلفة . فنسق القرابة يعتبر وسيلة لتنظيم الأفراد حسب قواعد معينة ، أما التنظيم الاجتماعى فانه يأتى بقواعد أخرى ، كذلك كان التسلسل الطبقى أو التفاوتالاقتصادى يمدنا أيضا بقواعده الخاصة به وكل هذه البناءات المنظمة يمكن أن تنظم بشرط الكشف عن العلاقات التى تربطها وهى على كل حال تؤثر فى بعضها البعض " (٥٤).

واذا كان مفهوم الكلمة فى علم اللغة لايكون بنسبتها الى مدلول (موضوع أو شىء خارجى) ، وانما يكون بعلاقتها بكلمات أخرى من نفس اللغة ، فان الانثروبولوجيا البنيوية بالمثل لا تفسر الظاهرة الا بعلاقتها بالكل الذى يحتويها ، وهو نسق هذه الظاهرة . وعلى سبيل المثال نجد ظاهرة أنثروبولوجية تعثر فى مواجهتها الأنثروبولوجيين السابقون على ليفى شتراوس وهى " ظاهرة الخال " اذ لوحظ أن " الخال " لدى الشعوب البدائية يمثل أهمية خاصة بالنسبة لابن أخته ، فهو أحيانا يكون موضع احترام وتقدير لدى بعضها ، وأحيانا أخرى يكون موضع ألفة مبالغ فيها عند البعض الآخر .

والواقع أن ليفى شتراوس يرى أن هذه العلاقات يتعذر علينا فهمها أن هى عزلت عن غيرها . اذ لابد أن ننظر اليها من خلال نسق علاقات أخرى ؛ فالخال ليس خالا الا

لأنه أخ للأم . كما أن العلاقة مع ابن الأخت ترد الى علاقات أخرى متضمنة فى ألفاظ خاصة مثل : علاقات الأب والأبن والأم بالابن والأب بالأخت . ومن ثم فنحن الآن أمام نسق يتحقق فى مجتمعات مختلفة وسط مجال من الاحتمالات المختلفه ، وبالتالى فان علاقة القـــرابة ليست علاقة ثنائية أو ثلاثية ، وانما هى تتضمن فكرة أعم وأشمل يفهم من خلالهـــا مجموعة الواقع الاجتماعى الذى تقـوم فيه علاقـة القرابـة بدور فعـال ونشـــط (٥٥).

والملاحظ أن ليفى شتراوس بعد أن طبق منهجه البنيوى على أنظمة القرابة ، نراه يطبقه أيضا على دراسة " الأساطير" . وكما وجدنا من قبل أن علاقة القرابه هى أشبه ما تكون بالنسق اللغوى : لأنها لاتتحدد على مستوى " الحدود Terms " ، وانما على مستوى " أواج من العلاقات" (زوج - زوجة ؛ أب ابن أخ أخت ؛ خال - ابن أخت) ، فسنرى بالمثل أنه لا سبيل الى فهم الأساطير الا بوصفها " لغة" أو "لغات" رمزية ، تعبر عن نظام متسق من المتقابلات . والفكرة الجوهرية التى يصدر عنها ليفى شتراوس هنا هى أن العقل البشرى واحد ، وأن التفكير الأسطورى ليس تفكيرا سابقـــا على المنطق prelogic : بل هو تفكير منطقى Logical على مستوى المحسوس ؛ أى أنه تفكير تصنيفى يستين بمجموعة من المقولات التجريبية (طازج وفاسد ، مبلل ومحروق ..الخ) وليست هذه المقولات التجريبية سوى أدوات تصورية ناجحة تفيد فى استخلاص بعض المعانى المجردة والربط بينها على هيئة سلسلة من القضايا . والواقع أن " مضمون " الأسطورة لايعد العنصر الأهم من عناصرها ، بل ربما كان من الخطر الفادح الذى يمكن أن يقع فيه الباحث اذا عمد الى تفسير كل رمز على حده ، أو فى ذاته . والحق أن الرمز ليس مستقلا أو قائما بذاته منعنزلا بالقياس الى السياق الذى يحتويه ، وانما لابد من الاقرار بأن دلالة أى رمز هى فى صميمها دلالة " موضوعية" تتحدد فى ضوء السياق الذى يرد فيه . وهو ما يعنى أن حقيقة أية أسطورة انما تنحصر فى تلك " العلاقات المنطقية الخالية من كل مضمون ، أو على الأصح تلك العلاقات التى تتسم بخصائص وسمات ثابتة تستغرق كل مالها من قيمة علمية ما دام فى الامكان إقامة علاقات مماثلة بين العناصر الداخله فى تشكيل عدد كبير من المضامين المختلفة .

ووفقا لذلك فان ليفى شتراوس ينسب الى الأساطير نما من " الموضوعية " ، ويقول أن لها " بنيتها " أو بنياتها" الخاصة(٥٦) .

وهكذا كان للبحوث اللغوية النصيب الأكبر فى تحديد الاتجاه الذى سارت فيه بنيوية ليفى شتراوس وفى صبغ دراسته وأبحاثه بطابعها المميز ، وهى أيضا التى تميز عن سائر الأنثروبولوجيين ، فلم يكن شتراوس من أوائك الأنثروبولوجيين الذين ينحصر اهتمامهم عند حدود ثقافية بدائية معية ، يعايشها بعنق ، ويحلل ملاحظاته عنها فى مؤلفات تفصيلية فيها كثير من الوصف وبعض التفسير ، كما هى الحال عند مالينوفسكى Malinowski مثلا ، فقد كانت دراسته للثقافات القديمة بمثابة وسيلة لغاية أوسع ، هى الوصول الى المبادىء الأساسية " للذهن البشرى " ولم تكن التفاصيل الأنثروبولوجية فى نظره سوى أداة تساعده على الوصول الى حقائق تصدق على هذا الذهن فى عمومه ، لا فى شكل خاص من أشكاله .

ومن ثم لم يقتصر ليفى شتراوس على التعامل مع ثقافة بعينها ، ويعايش أهلها سنوات طويلة ، بحيث يندمج فى حياتها اليومية لفترة طويلة ، كما فعل غيره من الأنثروبولوجيين المحترفيين ، بل أنه كان يقوم بأبحاث ودراسات عملية ميدانية سريعة الى حد ما ، اذا ما قورنت بما قام به غيره . ولم يكن يستقر فى مكان واحد طويلا ، وانما كان يتناول ثقافة هذا المكان بالقدر الذى يساعده فى تحقيق هدفه الأصلى ، الذى هو فى حقيقة الأمر هدف فلسفى .

أو بعبارة أخرى فان أبحاث شتراوس الأنثروبولوجية لم تكن غاية فى ذاتها ، بل كانت وسيلة لغاية أوسع هى فى الأساس غاية فلسفية (٥٧).يقول ليفى شتراوس : " لقد كان هدفى فى كا ما قمت به من أبحاث أن أفهم كيف تعمل النفس الإنسانية (٥٨).

ومن خلال هذا العرض السريع للترابط بين الأنثروبولوجى والبنيوية ، نستطيع أن نؤكد على أن اهتمام ليفى شتراوس المتأخر بالبحث الأنثروبولوجى لاينبغى أن يعد تحولا عن الأصل الفلسفى الذى بدأ منه . ذلك لأن هذا المجال بنوع خاص يمكن أن يقدم مادة خصبة للتفكير الفلسفى ، اذا كان الباحث قد تدرب على هذا التفكير بقدر كاف .

فيجوز لنا أن نقول أن دراسة الثقافات القديمة تحتل أهمية فلسفية كبرى ، اذ تساعدنا على الخروج من الحيز الضيق للثقافه التى نحيا بين جنباتها ، وتعرض لنا أنماط فكرية مغايرة لتلك التى اعتدناها .

واذا كانت هذه الأنماط البدائية - فى نظر شتراوس - لاتختلف " فى جوهرها " عن تلك التى نستعملها اليوم ، فان المهم أنها تدرس هنا فى اطار مغاير لذلك الذى خبرناه فى حضارتنا الحديثه .

ومن هنا يجد الأنثروبولوجى مجالا خصبا لاختبار وتطبيق فكرة النسبية التى طالما سعى الفلاسفة الى فهمها ، ويتيح له ميدان دراسته فرصة عظيمة لالقاء نظرة " موضوعية " على الفكر الانسانى الذى نسينا أصوله وأخفقنا فى اختبار جذوره العميقه المتأصله فينا دون وعى منا . واذا كان الفيلسوف يعجز ، فى الأحوال العادية ، عن الخروج عن الاطار الفكرى لحضارته ، لأن هذا الاطار الفكرى هو الذى يتحدث عنه ، ومن خلاله ، فان الدراسة الأنثروبولوجية توفر له مجالا فريدا يسمح له بتأمل مبادئه الفكرية " من الخارج" ، فى عفويتها وبساطتها ، ونقائها الأول (٥٩) .

بعد هذه الجولة الخاطفة فى أعماق الأنثروبولوجيا والبنيوية ، يتضح لنا مدى الجهد العلمى الكبير الذى قام به ليفى شتراوس فى مجال العلوم الانسانية بصفة عامة ، والانثروبولوجيا بصفة خاصة ، كما يتبين لنا مقدار مطامحه الفلسفه التى تتمثل فى حرصه الشديد على تحطيم " البداهات" التى طالما ارتكز عليها الفكر الغربى ، ومن بيتها فكرة الانسان ، وأولوية التاريخ ، وتفوق التفكير العلمى على غيره من الأساليب الأخرى فى مواجهة العالم كالسحر والميثولوجيا وغيرهما(٦٠) .

وصفوة القول لم يكن ليفى شتراوس عالما انثروبولوجيا عاديا وهو الذى تخرج من قسم الفلسفه ودرس القانون مما قد أثر فى نظرته للإنسان وللعالم .

الهوامش والمراجع

١ - **فؤاد زكريا** : الجذور الفلسفية للبنائية ، حولية كلية الآداب بجامعة الكويت ، عام ١٩٨٠ ص ٦ .

٢ - **زكريا ابراهيم** : مشكلة البنية ، مكتبة مصر ، القاهرة ، بدون تاريخ ، ص٣٠ .

٣ - المرجع السابق ، ص ٣٤ .

٤ -**على عبد المعطى محمد وآخرون** : تطور الفكر الغربى، مكتبة الفلاح بالكويت عام١٩٨٧ ، ص ٤٣٩ .

٥ - المرجع السابق ، نفس الموضوع .

٦ - **زكريا ابراهيم** : مشكلة البنية ، ص ٣٢ .

٧ - **محمد مهران** : مدخل الى الفلسفات المعاصرة ، دار الثقافه للنشر والتوزيع ، القاهرة عام ١٩٨٤ ، ص ص ٩٢ - ٩٣ .

٨ - **عبد الوهاب جعفر** : البنيوية فى الأنثروبولوجيا وموقف سارتر منها ، دار المعارف ، عام ١٩٨٠ ، ص ١٢ .

٩ - **زكريا ابراهيم** : مشكلة البنية ، ص ٣٥ .

١٠ - المرجع السابق ، ص ٣٧ .

١١ - E. Nelson Hayes and Tanys Hayes; editors the anthropologist as Hero Cambridge, 1970 , p.5

١٢ - جان بياجيه : البنيوية - ترجمة عارف منيمنه وبشيراويرى ، منشورات عويدات ، ببيروت عام ١٩٨٢ ، ص ٨ .

١٣ - Paz, Octavio; Claude Levi strauss, translated form the spanish by J.S. Bernstein and Maxine Bernstein, corieil unversity press, London , 1970.P.11

١٤ - Schaff, A.,dam; Structuralism and Marixism Pergamon press, Oxford , 1978 p.9 .

١٥ - Paz , Octavio; Claude Levi Strauss , P. 37 .

١٦ - **زكريا ابراهيم** : مشكلة البنية ، ص ص ٤٠ - ٤١ .

١٧ - **فؤاد زكريا** :الجذور الفلسفية ، للبنائية ، ص ٨ .

١٨ - **عزمى إسلام** : مفهوم المعنى ، حولية كلية الآداب جامعة الكويت ، عام ١٩٨٥، ص ١٨ .

١٩ - **زكريا ابراهيم** : مشكلة البنية ، ص ٤٨ .

٢٠- Paz , Octavio; Claude Levi Strauss , P. 25 .

٢١- Boon, James . A; from symbolism to structuralism, Basil Balck wall, Oxford, 1972, P.70 .

٢٢ - E. Nelson Hayes and Tanys Hayes; editors the anthropologist as Hero, p.5 .

٢٣ - **عبد الرحمن بدوى** : مدخل جديد الى الفلسفة ، وكالة المطبوعات بالكويت ، عام ١٩٧٩، ص ٢٥٥ .

٢٤ - **فؤاد زكريا** :الجذور الفلسفية ، للبنائية ، ص ٨ .

٢٥ - المرجع السابق ، ص ص ٢٥ - ٢٧ .

٢٦ - **زكريا ابراهيم** : مشكلة البنية ، ص ١٠٠ .

٢٧ - جان بياجيه : البنيوية - الترجمة العربية ، ص ٩٩ .

٢٨ - **على عبد المعطى و آخرون** : تطور الفكر الغربى، ص ٤٤٢ .

٢٩ - **عبد الوهاب جعفر** : البنيوية فى الفكر السياسى دار المعرفه الجامعية بالأسكندرية ، عام ١٩٨٤ ؛ ص ١٣- ١٤ .

٣٠- Schaff, A.,dam; Structuralism and Marixism p.9 .

٣١ - **عبد الوهاب جعفر** : البنيوية فى الأنثروبولوجيا ، ص ٣٩ .

٣٢ - **يحيى هويدى** : قصة الفلسفه الغربيه ، دار القافه للنشر والتوزيع ، القاهرة١٩٩٣، ص ١٥٤ .

٣٣ - **عبد السلام المسدى** : قضية البنيوية - دراسة ونماذج ، منشورات دار أمية ، تونس عام ١٩٩١ ، ص ٢٠.

٣٤ - المرجع السابق ، ص ٣٤ .

٣٥ - المرجع السابق - ص ٣٩ .

٣٦ - أندريه نوارى وآخرون : مدخل الفلسفه المعاصرة ، ترجمة خليل أحمد خليل ، دار الطليعه ، ببيروت عام١٩٨٨ ، ص٨٧ .

٣٧ - يحيى هويدى : قصة الفلسفه الغربيه ، ص ص ١٥٦ - ١٥٧ .

٣٨ - زكريا ابراهيم : مشكلة البنية ، ص ١٤٧ .

٣٩ - عبد السلام المسدى : قضية البنيوية - دراسة ونماذج ، ص ص ٣٩ - ٤١ .

٤٠ - عبد الوهاب جعفر : البنيوية فى الأنثروبولوجيا ، ص ١٣٠ .

٤١ - زكريا ابراهيم : مشكلة البنية ، ص ١٠٦ .

٤٢ - عبد الوهاب جعفر : البنيوية فى الأنثروبولوجيا ، ص ١٣٤ .

٤٣ - زكريا ابراهيم : مشكلة البنية ، ص ١٠٧ .

٤٤ - عبد الوهاب جعفر : البنيوية فى الأنثروبولوجيا ، ص ١٣٥ .

٤٥ - فؤاد زكريا :الجذور الفلسفية للبنائية ، ص ١٧ - ٢٠ .

٤٦ - عبد السلام المسدى : قضية البنيوية - دراسة ونماذج ، ص ١٢٠ .

٤٧ - عبد الوهاب جعفر : البنيوية فى الأنثروبولوجيا ، ص ١٨٧ .

٤٨ - فؤاد زكريا :الجذور الفلسفية للبنائية ، ص ٢٢ .

٤٩ - زكريا ابراهيم : مشكلة البنية ، ص ٢٠٦ .

٥٠ - عبد السلام المسدى : قضية البنيوية - دراسة ونماذج ، ص ١٢٢ - ١٢٣ .

٥١ - فؤاد زكريا :الجذور الفلسفية للبنائية ، ص ٢٣ .

٥٢ - عبد السلام المسدى : قضية البنيوية - دراسة ونماذج ، ص ٣٥ .

٥٣ - زكريا ابراهيم : مشكلة البنية ، ص ٨٠ .

٥٤ - عبد الوهاب جعفر : البنيوية فى الأنثروبولوجيا ، ص ٥١ .

٥٥ - المرجع السابق ، ص ٦٢ .

٥٦ - زكريا ابراهيم : مشكلة البنية ، ص ٨٨ .

٥٧ - **فؤاد زكريا** :الجذور الفلسفية للبنائية ، ص ٢٥ .

٥٨ - **عبد الوهاب جعفر** : البنيوية فى الأنثروبولوجياوموقف سارتر منها ، ص١٠٧.

٥٩ - **زكريا ابراهيم** : مشكلة البنية ، ص ١٠١ .

٦٠ - المرجع السابق ، نفس الموضع .